الفصل الثانى

أحوال العالم والعرب قبل الإسلام

- الفرس .
- الروم .
- أحوال بلاد العرب قبل الإسلام .

obeikandl.com

obeikandl.com

أحوال العالم والعرب قبل الإسلام

قد يكون من الحسن قبل أن نتكلم على الحضارة الإسلامية، والفكر الإسلامى أن نلم إلمامة خفيفة بحال العالم والعرب قبل الإسلام، ثم نخلص من ذلك إلى الكلام على الحضارة الإسلامية؛ فالإلمام بحال العالم الذى كان يحيط بمهد الحضارة الإسلامية، وبحال البلاد التى انطلقت منها هذه الحضارة أمر ضرورى؛ إذ يكشف لنا عن الظروف والأحوال التى سبقت ميلاد هذه الحضارة أو لابستها .

الفرس والرومان

كانت بلاد العرب قبل الإسلام محصورة بين أكبر دولتين فى العالم وهما : دولة الفرس، ودولة الرومان، وكانت هاتان الدولتان تتحكمان فى العالم فى ذلك الوقت، وتتنازعان السيادة عليه، وعلى الرغم من أنهما بلغتا شأوا عظيما فى الحضارة والرقى إلا أن عوامل الفساد والاضطراب كانت تدب فيهما، وبخاصة فى الناحيتين: الدينية والاجتماعية، ونذكر بإيجاز كلمة عن حالة كل منهما .

الفرس

الفرس من أقدم دول العالم، وأشدهم بأسا وآثارا فى الأرض، وكانوا فى بادئ أمرهم صائبة يعبدون الشمس والقمر وغيرهما من الكواكب، ثم غلبت عليهم المجوسية (وهى عبادة النار[1])، وصارت الدين الرسمى للدولة، ثم فشت فيهم نحلة الثنوية[2] وهى القول بإلهين: إله الخير وإله الشر، ثم ظهرت فيهم بدعة المزدكية [3] وهى مذهب إباحى، كما ظهرت النصرانية بمذهبيها المتعاديين :النسطورى واليعقوبى .

---

(١) على يد زرادشت . (٢) على يد مانى الزنديق .

(٣) على يد مزدك الإباحى وكان من تعاليمه: أن الله إنما جعل الأرزاق فى الأرض لتقسمها الناس بينهم بالتآسي، ومن كان عنده فضل من النساء والأموال والأمتعة فليس هو بأولى به من غيره، فافترص السفلة ذلك واغتنموه، وكانفوا مزدك وشايعوه فابتلى الناس بهم، وقوى أمرهم؛ فكانوا يدخلون على الرجل داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأولاده لا يستطيع الامتناع منهم - راجع تاريخ الإسلام للمرحوم الشيخ النجار .

وهكذا تعددت فيهم النحل و لأديان، وتنازعتهم المعتقدات الفاسدة، وشغلتهم عما يجب عليهم لمجتمعهم، وكان ملوكهم ينصرون هذا المذهب تارة، ويناهضونه أخرى، فوهنوا وفسد مجتمعهم .

ولم تكن حالتهم السياسية بأحسن من حالتهم الدينية؛ فقد كانت بينهم وبين الهياطلة فى الشرق، والترك فى الشمال حروب لا يخمد أوارها، كما كان لهم مع جيرانهم من الرومان وقائع متوالية، وملاحم متتالية، وكان العرب فى الغرب يتربصون بهم الدوائر، بل وتجرءوا عليهم ولا سيما قبيلة بكر بن وائل؛ فإنها حاربتها وانتصرت عليها فى وقعة ذى قار، بين سنة ٦٠٤-٦١١م .

وكم من مرة نزا أبناء الملوك وذوو قربتهم على الملك، وأوقدوا نيران الحرب والفتن الداخلية، وليس أدل على اضطرابهم السياسى من أنه تعاقب على الملك فى السنوات العشر التى سبقت الفتح الإسلامى « اثنا عشر ملكا بين رجل وامرأة وصبى صغير ومغتصب من غير بيت الملك » .

وكان ملوكهم منغمسين فى اللهو والترف مسرفين فى الملاذ والشهوات، متعالين على الشعب، ظانين أنهم من معدن آخر، وكانوا يسوقون الرعية إلى الحروب سوقا لا هوادة فيه .

كانت هذه الحروب الطاحنة، وذلك البذخ البالغ مدعاة لاستنزاف دماء الشعب، ولفرض الضرائب، وجمع الأموال فى قسوة وعنف؛ فشل اقتصاد البلاد، ودبت عوامل الفساد والانحلال فى الدولة التى كانت تناقس الرومان فى سيادة العالم، والتى كانت لها حضارة مزدهرة أسهمت فى تقدم الحضارة الإنسانية ورقيها، وأفادت منها الحضارة الإسلامية فائدة تذكر .

الروم

لقد بلغت دولة الروم من القوة والسلطان ما لم تبلغه دولة أخرى فى زمانها، وبسطت نفوذها على أكثر المعمور، وكانت تدين بالوثنية، ثم دخلتها المسيحية وانتشرت فيها[١] ؛ فوقع كثير من المنازعات والمشاحنات بين أرباب الديانتين .

---

(١) سارت المسيحية دين الدولة الرسمى فى عهد قسطنطين الأكبر (٣٢٤-٣٣٧)م، ثم صارت الدين الأوحد للدولة فى عهد الإمبراطور تيودسيوس (٣٩٤ ٤٤٩) م .

وفى خلال هذه المنازعات انقسم المسيحيون على أنفسهم فى شأن عقيدتهم واشتد الجدل بينهم، وتعددت آراؤهم ومجامعهم الدينية، وسفه بعضهم بعضا[١].

وكانت العقائد تقوى أو تضعف تبعا لأهواء الأباطرة، وميولهم نحو هذه العقيدة أو تلك، وناهيك بما أصاب مسيحى مصر فى عهد دقلديانوس سنة ٣٠٤م؛ إذ قتل علماء الملة وكبراءها حمية للوثنية، مما جعل الأقباط يؤرخون بوقعة شهدائهم أولئك إلى اليوم[٢].

وقد شغلهم هذا الانقسام والتحيز إلى هذا المذهب، أو ذاك عن تدبير الملك وسياسة البلاد، ففسدت الأحوال واختلت الأمور، واضطربت شئون الولايات، وعمت الفوضى جميع أطراف الإمبراطورية.

أضف إلى ذلك أن الأباطرة كانوا مشغولين بملذاتهم منهمكين فى شهواتهم، مترفعين على شعوبهم، وكانت الحروب بينهم وبين الفرس لاتكاد تخبو نارها، مما اضطر الدولة إلى فرض الضرائب الفادحة، وجبايتها بالشدة والقسوة لتغطية نفقات الحروب وبذخ الأباطرة، مما أدى إلى تعطيل اقتصادها وسوء أحوالها.

تلك كانت حال الدولة التى سادت معظم العالم فى زمانها، وبلغت شأوا عظيما فى الحضارة كان له ولا شك أثر يعتد به فى الحضارة الإسلامية كما سيأتى:

حقا لقد بلغت هاتان الدولتان قمة المجد قبل الإسلام، وكان لا بد لهما أن تنحدرا بتأثير العوامل التى قدمناها، وهذه سنة الله، ولن تجد لسنة الله تبديلا؛ يقول أرباب البصر بسنن الكون، وأحوال العمران الانسانى: إن الارتقاء والمدنية دور من أدوار حياة كل أمة لا بد لها من اجتيازه متى تهيأت له، وإن الأمة لا ينالها ذلك إلا مرة واحدة فى الدهر، تبلغ أعلى قمة المجد والرقى، وينفسخ سلطانها وتعلو كلمتها كل أمم العالم.

وهاتان الدولتان قد بلغتا أعلى قمة مجدهما قبيل الإسلام، ولم يبق أمامهما إلا أن تنحدرا من ذلك المرتقى، وتخليا الطريق لمن يبنى المنار به، وهذا هو الذى قد كان؛ ومن قبل قيل

إذا تم شىء بدا نقصه ... ترقب زوالا إذا قيل تم

ولكن مع هذا فقد استفادت الحضارة الإسلامية من حضارة هاتين الدولتين فائدة لا تجحد كما سيتبين ذلك فيما بعد.

---

(١) راجع ما ذكره العلامة ابن خلدون بشأن العقيدة التى يسمونها الأمانة المتعلقة بالثالوث.

(٢) راجع تاريخ الإسلام للمرحوم الشيخ النجار.

أحوال بلاد العرب قبل الإسلام

الوصف الطبيعى لجزيرة العرب :

أرض جزيرة العرب كثيرة الجبال الجرداء، والصحارى المترامية الأطراف، ويتخلل هذه الجبال كثير من الوديان التى هيأتها السيول ليجرى فيها ماؤها .

والأرض القريبة من هذه الأودية خصبة يجد المقيمون فيها ما يشربون، ومايسيمون فيه أنعامهم، وما بعد عنها قفر لا يصلح للإقامة، وسرعان ما ينتجع [١] عنها من ينزل فيها .

ومن هنا قلما كان العرب فى بواديهم يبقون فى مكان واحد، ولكنهم يتتبعون مواقع القطر لتربع أنعامهم، وإذا تأخر المطر اشتد الحال عليهم .

على أن مياه هذه الأودية لا تسد حاج أهل الجزيرة؛ لذا غلب عليها الجدب، ولا سيما أن كثيرا من مياهها يغيض فى باطن الأرض الصحروية؛ فلا يمكنهم الانتفاع به إلا بصناعات ومعاناة، لم يكونوا من أهلها .

ومن ثم كان جل اعتماد أهل البادية على أنعامهم، ولا سيما الإبل يأكلون لحومها ويشربون ألبانها، ويكتسون بوبرها. وتحمل أثقالهم فى تلك الصحارى المقفرة إلى بلد لم يكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس .

يقول صاعد الأندلسى : « وأما أهل الوبر فهم قطان الصحارى، وعمار الفلوات، وكانوا يعيشون من ألبان الإبل ولحومها، وكانوا زمان النجعة ووقت التبدى [٢] يراعون جهات إيماض [٣] البرق، ومنشأ السحاب، وجلجلة الرعد؛ فيؤمون منتجعين لمنابت الكلأ، مرتادين لمواقع القطر، ويخيمون [٤] هناك ماساعدهم الخصب، وأمكنهم

---

(١) انتجع : طلب الكلأ فى موضعه . القاموس .

(٢) التبدى : الإقامة فى البادية . لسان العرب والقاموس .

(٣) إيماض البرق : لمعانه . القاموس .

(٤) يخيمون : يقيمون؛ خيموا بالمكان أقاموا به . القاموس .

ترعى، ثم يقومون لطلب العشب، وابتغاء المياه؛ فلا يزالون فى حل وترحال كما قال المثقب العبدى فى ناقته :

تقول إذا درأت لها وضينى [1] أهذا دينه أبدا ودينى
أكل الدهر حل وارتحال أما تبقى على، ولا تقينى [2]

ولما كان اليمن أكثر بلاد العرب أمطاراً كثرت فيها الوديان [3]، وقد أمكنهم فيما مضى أن يتحكموا فى مجارى هذه الوديان، بإقامة سدود عند ملتقى الأودية الكبيرة، وقد اشتهر منها سد مأرب [4]، وهو سد محكم يحجز الماء خلفه فى أرض صلبة للانتفاع به وقت الحاجة، ولكنه مع طول الزمن، وعدم العناية به تهدم؛ وكان لذلك أثره فى عمران اليمن، وعلى الرغم من تهدّمه لم تزل اليمن أخصب بلاد العرب، وأغناها، وأكثرها سكانا؛ ولذا عرفت فى العصور القديمة باسم: «بلاد العرب السعيدة» [5].

---

(١) وضينى: الوضين للهودج كالحزام للسرج، والجمع وضن، ودرأت الوضين إذا بسطته على الأرض، وأبحت عليه الناقة – لسان العرب .

(٢) راجع كتابه طبقات الأمم لأبى القاسم صاعد الأندلسى ص٦٦ .

(٣) ومن أعظم وديانها ميزاب اليمن الشرقى، ويصب فيه كثير من الوديان، وهو الذى يقضى إلى موضع سد مأرب، ويسقى أرض الجنتين .

(٤) وهو أقدم سد عرف فى التاريخ، ويقع إلى الجنوب والغرب من مدينة مأرب، وهو الذى أشار إليه القرآن الكريم بقوله ﴿**لقدْ كَان لِسَبأٍ فِي مسكَنِهم آيةٌ جنّتان عن يمينٍ وشِمَالٍ ... فأعرَضُوا فأرسلنا عليهم سيل العَرِمِ**﴾ [سبأ:١٥-١٦] . وخرائب مدينة مأرب أو سبأ تقع على بعد ثلاثين فرسخا من صنعاء – حضارة العرب للدكتور جوستاف لوبون ص٦٥ .

(٥) «وصف هيرودتس قبل المسيح بنحو أربعمائة سنة «بلاد العرب السعيدة» بأنها من أغنى بقاع العالم، وأنه كان فى مأرب أو سبأ قصور نضرة ذات أبواب عسجدية، وآنية من ذهب وفضة وسرر مرصعة بالجواهر» . المصدر السابق ص١٠٥ وراجع حضارة العرب للأستاذ ى . هل . ص٣، ٤ .

حالة العرب الدينية

اختلفت أديان العرب فى جاهليتهم، وتعددت أربابهم، ولكن الديانة التى كانت سائدة بينهم فى ذلك الوقت هى الوثنية، وهى عبادة الأوثان والأصنام [١]، وكانت مكة معقل الوثنية، وقد وجد حول الكعبة يوم أن فتحها المسلمون ٣٦٠ صنما . وقد بلغ من هوسهم فى وثنيتهم أن كان لبنى حنيفة صنم من حيس [٢] يعبدونه، فلحقتهم مجاعة في بعض السنين فأكلوه، فقال فى ذلك بعض الشعراء :

أكلت حنيفة ربها ... عام التقحم والمجاعة
لم يحذروا من ربهم ... سوء العواقب والتباعة [٣]

وكانت هناك طائفة منهم تعبد النار وهم المجوس، وقد انتقلت إليهم هذه الديانة من الفرس الذين كانوا يحاورونهم .

كما كانت فى اليمن طائفة منهم تعبد الشمس والكواكب وهم الصابئة، وقد ذكر القرآن الكريم قصتهم مع سليمان عليه السلام فى قوله حكاية عن الهدهد : ﴿ **إِنِّي وَجَدتُّ امْرأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وجدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُون لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وزيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يهتدُون** ﴾ [النمل :٢٣-٢٤]

---

(١) قال ابن الأثير: الفرق بين الوثن والصنم أن الوثن كل ماله جثة معمولة من جواهر الأرض أو من الخشب والحجارة كصورة الآدمى تعمل وتنصب فتعبد، والصنم الصورة بلاجثة، ومنهم من لم يفرق بينهما، وأطلقهما على المعنيين لسان العرب، وراجعه فى مادتى: صنم ووثن. وقال الكلبى فى كتاب الأصنام: «إذا كان معمولا من خشب أو ذهب أو من فضة صورة إنسان فهو صنم، وإذا كان من حجارة فهو وثن» - ص٥٣ .

(٢) الحيس: الخلط ومنه سمى الحيس وهو تمر يخلط بسمن وإقط (محيض غنمى) لسان العرب، القاموس .

(٣) قال رجل من نبى تميم :

أكلت ربها حنيفة من جو ... ع قديم بها ومن إعواز

المعارف ص٢٦٦، طبقات الأمم لأبى القاسم صاعد الأندلسى ص٦٧ .

وإلى جانب هذه الديانات كانت اليهودية فى يثرب (المدينة) والأماكن القريبة منها [١] فى بعض بلاد اليمن، وكانت النصرانية فى الحيرة وغسان ونجران وغيرها [٢].

وهكذا كانت شبه جزيرة العرب تتنازعها الديانات المختلفة، ولكل دين أنصار يحملون لواءه، ويحمون ذماره، وإذا شعرت طائفة منهم بعجزها عن بلوغ أمنيتها استنجدت بأخرى لتعينها على من ناوأها، وتشد أزرها على من قوى عليها.

حالة العرب الاجتماعية [٣]

كان الرجل العربى يكرم زوجته ويجلها؛ انظر إليه حين يخاطبها بمثل قوله:

يا ربة البيت قومى غير صاغرة ضمى إليك رحال القوم والقربا

وكان الزواج عندهم على أنحاء؛ منها:

أن يخطب الرجل إلى الرجل وليته، أو ابنته فيصدقها [٤]، ثم ينكحها، وهذا هو الزواج الذى أقره الإسلام ليقوم عليه بيت صالح، وأسرة طيبة هى أساس المجتمع.

ومنها نكاح الاستبضاع، ونكاح الضماد، ونكاح الخدن، ونكاح البدل، وغير ذلك [٥].

---

(١) مثل: خيبر، وفدك، ووادى القرى، وتيماء.

(٢) فصل صاعد الأندلسى فى طبقات الأمم ما كانت تعبده كل قبيلة من قبائل العرب ص٦٦، ٦٧.

(٣) نعنى بالحالة الاجتماعية علاقة الرجل بزوجته وأولاده وبنى عمه دنيا، وعلاقة القبائل المختلفة بعضها ببعض.

(٤) أصدقها: سمى لها صداقها (مهرها) - القاموس.

(٥) نكاح الاستبضاع: أن يقول الرجل لامرأته إذا طهرت من طمثها أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه ويعتزلها، ولا يمسها حتى يتبين حملها من ذلك الذى تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة منه فى نجابة الولد.

ونكاح الضماد: أن يجتمع الرهط دون العشرة؛ فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت حملها ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم؛ فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها؛ فتقول لهم: قد عرفتم الذى كان من أمركم، وقد ولدت؛ فهو ابنك يا فلان، تسمى من أحبت باسمه فيلحق به ولدها، لا يستطع أن يمتنع منه الرجل.

ونكاح الخدن: هو أن يعاشر الرجل المرأة، ويتصل بها سراً، وقد أشار القرآن إلى ذلك بقوله: ﴿ **محصنات غير مسافحات** ﴾ [النساء ٢٥].

ونكاح البدل أن يقول الرجل للرجل انزل لى عن امرأتك، وانزل لك عن امرأتى وأزيدك.

وراجع البخارى وشروحه فى باب من قال: «لا نكاح إلا بولى»، ونيل الأوطار ج٦ ص١٥٨ ففيه تفصيل هذه الأنحاء.

ومنها ما تعقده أسة الرماح؛ فكان لواحد منهم إذا قابل آخر معه ظعينة [1] غالبه عليها؛ فإذا غلبه أخذها منه سبية، واستحلها بذلك .

وجميع هذه الصور ما عدا الصورة الأولى لم تكن مستحبة من جمهورهم، وقد أبطلها الإسلام؛ وعبر عنها بوجه عام بلفظ اسفاح .

وكانوا لا يتقيدون فى الزواج بعدد معين، وقد صح أن غيلان بن سلمة الثقفى أسلم وتحته عشر نسوة؛ فقال له النبى ﷺ : « اختر منهن أربعا وفارق سائرهن » [2] .

وكانت المرأة تستأمر قبل زواجها؛ يدل لذلك ما رواه صاحب الأغانى [3] من أن الحارث بن عوف المرى وفد على أوس بن حارثة بن لأم الطائى يخطب إليه إحدى بناته، فدعا أوس كبراهن وقال لها : يا بنية هذا الحارث بن عوف سيد سادات العرب، وقد جاءنى خاطبا، وقد أردت أن أزوجك منه فقالت : لا تفعل؛ لأنى امرأة فى وجهى ردة، وفى خلقى بعض العهدة، ولست بابنة عمه فيرعى رحمى، وليس بجارك فى البلد فيستحى منك، ولا آمن أن يرى منى ما يكره فيطلقنى؛ فيكون على فى ذلك ما فيه؛ قال : قومى بارك الله فيك، ثم دعا الوسطى فأجابته بمثل جواب أختها وقالت : إنى خرقاء، ولا آمن أن يرى منى ما يكره؛ فيطلقنى؛ فيكون على فى ذلك ما تعلم، ثم دعا الصغرى وعرض عليها فقالت : أنت وذاك؛ فأخبرها بإباء أختيها؛ فقالت : لكنى والله الجميلة وجها، الصناع يدا، الرفيعة خلقا، الحسيبة نسبا؛ فإن طلقنى فلا أخلف الله عليه بخير .

وكانوا يطلقون، ولكن لا يتقيدون بعدد فى الطلاق؛ فقد روى الترمذى والحاكم وغيرهما عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان الرجل فى الجاهلية يطلق امرأته ماشاء أن يطلقها، وهى امرأته إذا ارتجعها وهى فى العدة، وإن طلقها مائة طلقة وأكثر، فلما جاء الإسلام حدد عدد الطلقات، وحرم الرجعة بعد الطلقة الثالثة « فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره » .

---

(١) الظعينة : المرأة ما دامت فى الهودج ـ القاموس .

(٢) رواه أحمد وابن ماجه والترمذى عن ابن عمر .

(٣) جـ٩ ص٣٤ من طبعة الساسى فى خبر طويل لطيف .

وكانت علاقة الرجل بأولاده علاقة محبة وإشفاق؛ يقول قائلهم:

وإنما أولادنا بيننا ... أكبادنا تمشي على الأرض

لو هبت الريح على بعضهم ... لامتنعت عيني من الغمض

غير أن فريقا منهم كانوا يفرحون إذا أنجبوا البنين، ويحزنون إذا رزقوا البنات، حتى إن منهم من كان يئد بناته أحياء خشية العار؛ وقد أشار القرآن إلى ذلك منددا في أكثر من آية، قال عز وجل ﴿**إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِن الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ**﴾ [النحل:٥٨-٥٩].

ومنهم من كان يقتل أولاده خشية الإملاق. وقد نهاهم القرآن عن ذلك بقوله: ﴿**وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا**﴾ [الإسراء:٣١]

وكانت علاقة الواحد منهم بأبناء عمه دنيا علاقة حب ومودة؛ لأنه يرى فيهم قوة له، كما هو الشأن في أولاده.

أما علاقة القبيلة بقبيلة أخرى فكانت علاقة عداوة وكراهة، وكان الانتقام والأخذ بالثأر شرعا لهم، وربما اهتاجت قبيلة من أخرى لتافه الأمر، وقد يضرم نار الحرب بينهم وشل[1].

علوم العرب ومعارفهم

للعلوم والمعارف أثر أي أثر في رقي الأمم، وتقدمها في كل مناحي الحياة المختلفة، وكان العلم والتعليم عند العرب شيئاً غير مألوف، ومن يعرف القراءة والكتابة منهم أقل من أن يذكر[2]؛ فكانوا حقاً أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب حتى جاء الإسلام، وحث على العلم والتعلم فأخذوا منهما بحظ غير منزور.

(١) الوشل محركة الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة ولا يتصل قطره – القاموس.

(٢) لم يكن في قريش كلها حين جاء الإسلام إلا سبعة عشر رجلا يقرءون ويكتبون من بينهم عمر وعثمان وعلي وأبو عبيدة بن الجراح وأبو سفيان وأبناءه يزيد ومعاوية. وقد ذكرهم جميعاً البلاذري في كتابه فتوح البلدان ص٤٧٧، وراجع قصة الحضارة للعلامة ول ديورانت جـ٢ من المجلد الرابع ص٢١.

وغاية ما كانوا عليه من معرفة هو ما دعت إليه الضرورة من مثل أمراض الإبل التى كانت عونا لهم فى حياتهم، ومن غزل الصوف والوبر الذى كانوا يصنعون منه ملابسهم وخيامهم، ومن معرفة بعض الأمراض التى كان يتعرض لها سكان الصحارى، وكان الكى بالنار هو الدواء الغالب عندهم.

وكان لهم «معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها، وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها؛ يعرفون العارض الممطر من العقيم على حسب ما أدركوه بفرط العناية، وطول التجربة لاحتياجهم إلى معرفة ذلك فى أسباب المعيشة لا على طريق تعلم الحقائق، ولا على طريق التدرب فى العلوم» (١).

وكانوا يجيدون علم القيافة والفراسة والريافة، ولهم فى ذلك شأن واضح وأخبار فى غاية الغرابة (٢).

ومن هذا العرض الموجز يتبين لنا أن العلوم والمعارف لم يكن لها عند العرب فى جاهليتهم شأن يمتد به.

تجارة العرب

من المعلوم أن طبيعة بلاد العرب لا تكفى حاجة أهلها؛ وذلك يدعوهم لأن يتبادلوا التجارات مع غيرهم لاستكمال ما يحتاجون إليه. وكانت لهم أسواق نافقة يجتمعون فيها لشراء ما تمس إليه حاجتهم من لباس وغيره، وبيع ما يزيد عن حاصلاتهم.

على أن اليمن - لخصب أرضها، ووفرة معادنها، ولموقعها الجغرافى - كانت لها صلات تجارية واسعة مع الحبشة والهند، والفرس ومصر وشمال الجزيرة وغيرها من البلاد استمرت حقبة طويلة من الزمان (٣).

---

(١) راجع طبقات الأمم لأبى القاسم صاعد الأندلسى ص٧٠.

(٢) القيافة: القائف الذى يتتبع الآثار، ويعرفها، ويعرف شبه الرجل بأخيه وأبيه - لسان العرب.
والفراسة: الاستدلال بهيئة الإنسان وشكله ولونه وكلامه على أخلاقه وحالته.
والريافة: معرفة مواطن الماء من الأرض بالإمارات الدالة عليها؛ فيعرف قربه أو بعده برائحة بعض النباتات مثلا.

(٣) راجت تجارة اليمن فى العصور القديمة والوسطى؛ فكانت تتجر فى حاصلاتها الخاصة من صموغ وأعطار وجلود ومنسوجات، كما كانت تتجر فى حاصلات الشرق الأقصى التى كانت تجلب إليها بحرا، ثم تنتقل إلى ممالك البحر الأبيض المتوسط عن طريق الحجاز أو البحر الأحمر. وراجع حضارة العرب للعلامة جوستاف لوبون ص١٠٦.

وكان لقريش رحلتان تجاريتان: رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام، وقد استفادت من وراء هاتين الرحلتين كثيرا من الفوائد المادية والثقافية .

وهذه التجارات كانت محصورة فى المدن غالبا وهى قليلة فى بلادهم . وإذا عرفنا أن مكة وهى من أكبر البلاد العربية في زمانها ما كان غيرها – التى تسببت فى غزوة بدر والتى «لم يبق بمكة قرشى، ولا قرشية له مثقال فصاعدا إلا بعث به» فيها – تزيد على خمسين ألف دينار [١] أمكننا أن نقول: إن تجارة العرب – فيما عدا اليمن – كانت محدودة فى كثير من أزمانها .

ولم يكن لهم نقود يتعاملون بها؛ وإنما كان تعاملهم إما بطريق مبادلة الأعيان بالأعيان، وإما بنقود الدولتين المجاورتين لهما، وهما: الفرس والروم، وكان الدينار من الروم، والدرهم من الفرس [٢] .

غير أن اليمن كانت لهم نقود خاصة بهم «وقد اشترى مسيو شلو ميرحر فى القسطنطينية حديثا مائتى قطعة من نقود ملوك اليمن التى اكتشفها عربى فى صنعاء، والتى ترجع فى قدمها إلى ما قبل ولادة المسيح» [٣] .

صناعة العرب

كان العرب أبعد الأمم عن الصناعة؛ وذلك لأن عامتهم بدو مستوفزون [٤] للظعن فى أكثر أوقاتهم، والصناعة تستلزم الإقامة فى المدن حيث يسهل وجود المواد الأولية اللازمة للصناعة، وتصريفها .

على أن أهل المدن منهم لا تستحكم فيهم ملكة كثير من الصناعات لإعواز [٥] المواد الأولية للصناعات المختلفة فى بلاد العرب؛ ومن ثم لم يكن من المألوف عندهم أن يكون الواحد منهم صانعا، اللهم إلا ما كان باليمن لاختصاص أرضها بالخصب،

---

(١) إمتاع الأسماع للمقريزى جـ١ ص١١٣،٦٦ .

(٢) فتوح البلدان للبلاذرى ص٤٧١، ٤٧٢ – الأحكام السلطانية للماوردى ص١٣٩ .

(٣) حضارة العرب للعلامة جوستاف لوبون ص١٠٨ – حضارة العرب للأستاذ ى . هل ص٨ .

(٤) مستوفزون: متحفزون للسير والانتقال .

(٥) إعواز: أعوزنى هذا الأمر إذا اشتد عليك وعسر ... وأعوزه الشىء إذا احتاج إليه فلم يقدر عليه – لسان العرب .

ووجود المادة التى تقوم عليها الصناعة، واستحكام الملك فيهم مدة من الزمن، واعتيادهم التوسع فى معايشهم .

لهذا لم يكن غريبا أن يكون احترف الصناعة عندهم أمرا غير معروف، ولا مرغوب فيه، ولقد عاب جرير على الفرزدق أكثر ما عاب أن كان أحد آبائه قينا يصقُل السيوف . ومن ذلك قوله (١) :

فأخزيت يا ابن القين آل مجاشع فأصبح ما تحمى مباحا مدعثرا

وكان المعديون يعيبون أهل اليمن بدباغة الجلود، وحياكة الثياب، ويقول قائلهم: « هم بين دابغ جلد، وناسج برد » (٢) .

وحتى الصناعات الميسورة كصناعة ابناء كانوا يرجعون فيها إلى عمان من الروم أو الفرس كما يعلم ذلك من بناء الكعبة قبيل الإسلام، وبناء الخورنق فى زمن النعمان (٣).

وكان نساء العرب كافة يشتغلن بالغزل . ومنهن من كانت تترفع عن العمل بيدها اكتفاء بالمواهن (٤) ، ومن لا تعمل كانوا يدعونها خرقاء .

حال العرب السياسية

إذا نظرنا إلى جزيرة العرب نجد :

أن بلاد عُمان (٥) والبحرين فى الشرق مفصولة عن سائر الجزيرة بفاصلين: طبيعى وسياسى؛ فالمفاوز والبرارى الواسعة، والصحارى المقفرة حالت بينها وبين سائر البلاد، كما أن إذعانها لسيادة الفرس منعها من الاتصال بغيرها .

---

(١) وقوله :

وفاز الفرزدق بالكلبتين وعدل من الفحم الأسود
فرقع لجدك أكياره وأصلح متاعك لا يفسد
وأدن العلاة، وأدن القدو م ووسع لكيرك فى المقعد

والعلاة السندان آلة من آلات الحداد – القاموس .

(٢) كان القرظ كثيراً فى جهة صنعاء، فاستعملوه فى دبغ الجلود، ثم استعمالها فيما تصلح له من النعال وغيرها – محاضرات المرحوم الخضرى .

(٣) الخورنق: قصر النعمان الأكبر معرب خورنكاه أى موضع الأكل - القاموس .

(٤) المواهن: جمع ماهنة وهى الخادمة – لسان العرب .

(٥) عمان بضم أوله وتخفيف ثانية وآخره نون اسم كورة عربية على ساحل بحر اليمن والهند – معجم البلدان لياقوت .

وبلاد اليمن وحضرموت كانت فى كثير من الأحيان ميدانا للحروب الداخلية والفتن الأهلية؛ فهوت من قمة مجدها، وذهب ريح الدولة التى بنت سد مأرب، وطمع فيها غيرها، فاستولت عليها الحبشة فى سنة ٥٢٥م وحكمتها حكما استبدادياً؛ فاستنجدت بالفرس فأخرجوا الأجياش منها فى سنة ٥٩٧م (أى قبل ظهور الإسلام بقليل) واستولوا عليها، وظلوا فيها إلى أن جاء الإسلام .

وبلاد الحجاز ونجد كانت أحسن حالا من غيرها، وكانت مكة قصبة الحجاز، وقد نبه ذكرها لوجود الكعبة فيها، الأمر الذى جعل بعض القبائل ينفس عليها، ويقيم بيوتاً للعبادة ينافس بها الكعبة، ولكن ذلك لم ينقصها شيئا، فظلت هى الكعبة التى يجلها عامة العرب ويعظمها .

وكانت لقريش دار للشورى هى دار الندوة؛ يجتمع فيها كبراؤها للتشاور فى مهامهم، كما قسموا شارات الشرف فيما بينهم حتى لا يختلفوا على أنفسهم [١] .

وعرب الشمال كانت لهم مملكتان صغيرتان : مملكة الحيرة فى العراق، ويذعنون لسيادة الفرس، ومملكة غسان في الشام، ويذعنون لسيادة الروم، وكانت هاتان الدولتان فى خصام وحروب دائمة لا تكاد الحرب تضع أوزارها بينهما .

وكان النظام القبلى هو النظام السائد فى عامة الجزيرة؛ فلم يكن إذن فى بلاد العرب مملكة أو شبه مملكة لها من العز والسلطان ما يعلى كلمتها، ويفرض سلطانها على سائر البلاد [٢] .

النتيجة لحال العرب

بعد هذه الإلمامة القصيرة بحال العرب يمكننا أن نقول : إنهم كانوا بحال لا يغبطون عليها؛ فقد توزعتهم الأديان المختلفة، وعددوا الأرباب، وعقلوا عقولهم عن التفكير، واستحبوا العمى على الهدى .وحالتهم الاجتماعية لم تكن بأحسن من حالتهم الدينية؛ فإننا إذا نظرنا إلى ما وراء أبناء العم دنيا وجدنا قرابة مهتوكة الستر، ورحما مقطعة الأسباب، وقبائل متنافرة متدابرة يتربص بعضها لبعض الدوائر، وقد تحجرت قلوبهم، ونزعت الرحمة من نفوسهم .

---

(١) راجع سيرة ابن هشام جـ١ ص٨٧ – ٩٠ . الطبرى جـ٢ ص١٨٣ – ١٨٥ تاريخ ابن عساكر مخطوط بدار الكتب الأزهرية ص٧٠٤ من المجلد الثالث، العقد الفريد جـ٢ ص٣١ .

(٢) راجع تاريخ الإسلام للمرحوم الشيخ النجار .

وقد بدت تفشو فى فريق منهم فاشية سوء من قتل الأولاد خشية الإملاق، ووأد البنات أنفة من العار .

ولم يكن من الصناعات شيء ذا غناء، وتجارتهم كانت محصورة فى المدن وهى قليلة (١) .

وليس لهم فيما وراء أبناء العم رابطة تؤلف بين قلوبهم، أو حكومة تجمعهم تحت راية واحدة؛ فكان منهم الخاضع للفرس كاليمن والمناذرة، ومنهم الخاضع للروم كالغساسنة، ومنهم من لم يكن خاضعاً لحكومة عامة وهم الأغلبية والسواد الأعظم، وهؤلاء كانوا يدينون لرؤساء قبائلهم، ويستنصرون بعصبياتهم .

وإذا شعرت قبيلة منهم بعجزها عن سفك الدماء، والانتقام تحالفت مع أخرى تشد أزرها، أو استنجدت بغيرها لتنيلها من عدوها نيلا .

ومن هذا يتبين سوء أحوالهم، ووقوعهم تحت الاستعمار الرومانى والفارسى والحبشى، وتأثرهم بالعصبية القبلية .

كانت هذه الحالة السيئة مدعاة لأن يتطلعوا إلى مخرج مما هم فيه؛ فلما جاء الإسلام تقبلوه، وعملوا على نشره على الرغم مما بدا منهم من معارضته، ومناوأته فى بادئ الأمر .

على أنه كانت لهم إلى جانب هذه لصفات المرذولة التى أشرنا إليها صفات طيبة حميدة، كالشجاعة والنجدة، وإقراء الضيف، واحتمال الشدائد، إلى جانب الفصاحة والأدب النافق .

وهذه الصفات، وتلك الأمور كانت بلا شك ذات أثر عظيم فى بث الدعوة الإسلامية والدفاع عنها، وبالتالى فى تقدم الحضارة الإسلامية ورقيها .

ومن ثم نستطيع أن نقول: إن بلاد العرب وحضارتها كانت عوناً ورفدا هاما للحضارة الإسلامية، كما سيتبين فيما بعد .

هذه إلمامة موجزة عن حالة العالم والعرب قبل الإسلام، تمهد لنا الكلام على أصول الحضارة الإسلامية .

* * *

(١) راجع حضارة العرب للأستاذ ى . هل ص١١، ١٢ .